عرض تحليلي لكتاب عبد الله زروق

قضايا في فلسفة وعلم الأخلاق

بقلم: الدكتور عبدالقادر الشيخلي

مستشار في رابطة العالم الإسلامي

هذا كتاب علمي وقيِّم من تأليف الأستاذ الدكتور عبدالله حسن زروق، الأستاذ في قسم الفلسفة في جامعة الخرطوم، ويقع في خمسمائة وواحد وثلاثين صفحة، ويتألف من ستة أبواب مستقلة. جاء الأول منها بعنوان أهمية الأخلاق ومهدداتها وتعريفها، تناوله في ثلاثة فصول عرضت أهمية الأخلاق ومهدداتها، وأصل لفظ الأخلاق وأخيراً طرق دراسة الأخلاق، والتعريف بها، وبفروعها، وبأقسامها. وجاء الباب الثاني بعنوان نشأة الأخلاق وتعريفها، عرض في ثلاثة فصول تناولت نشأة الأخلاق، والأخلاق اليونانية، والأخلاق المسيحية، والأخلاق الإسلامية، والأخلاق الحديثة والمُعاصرة، والأخلاق المجتمعية، والأخلاق المؤسسة على الحقوق.

وعرض الباحث الكريم في الباب الثالث نظريات أخلاقية في أربعة فصول هي: نظرية الفضائل الخلقية، ونظرية الأخلاق المؤسسة على الحالة المُعينة وأخلاق العناية، والأخلاق المجتمعية، والأخلاق المؤسسة على الحقوق، ونظرية الأوامر الإلهية، ونظريات أخرى.

أما الباب الرابع فقد جاء بعنوان الأخلاق والعلوم والمعارف، تناولها الباحث في ستة فصول هي: الأخلاق والدين، والفلسفة،

وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتربية، والاقتصاد، والقانون، والسياسة، والعلم، والتكنولوجيا، والفنون، والآداب.

وفي الباب الخامس تناول الأخلاق العملية، وأقسامها، وذلك في اثني عشر فصلاً، عرض في الفصل الأول النظر والعمل في الحياة وفي الفلسفة، ففي النظر هناك علم الأخلاق الوصفي، وعلم الأخلاق المعياري، وعلم الأخلاق التحليلي. ووضع الباحث الخبرة العملية مقابل النظر، وناقش الرأي القائل بتقديم العمل على النظر، وفضل العلم ووجوبه، وفضل العمل ووجوبه ، كما تناول الفجوة ما بين الاعتقاد والمعرفة والعمل، أي بين النظرية والتطبيق، وهو أمر دفعه لعرض الدوافع غير العقلانية مثل خداع النفس، والعنا، والجحود، والإقصاء، والحسد، والكبرياء، والكراهية، والنفاق، والغضب، والرياء، والطمع، والخوف، والتعصب، والغيرة، والأنانية ... إلخ.

وفي الفصل الثاني تناول أخلاق المهنة، والعمل، والهندسة، وتكنولوجيا المعلومات، وشرح العلاقات بين هذه العناصر.

وفي الفصل الثالث عرض أخلاق الطب التي تتطلب فهم المرجعيات ولجان الإفتاء، وهيئات المراجعة، ودور الطبيب ووظيفته، باعتباره معالجاً وداعية وصاحب رسالة إنسانية، كما عرض الآفات التي قد تصيب الطبيب وهو يمارس مهنته، كالإهمال، وكشف أسرار المريض، وخدمة السلطة، والضرر بالمواطنين، وجمع المال بطريقة غير مشروعة، وعدم تطوير معارفه، وحب الشُهرة، ومن ثم يجب أن يعرف الطبيب مسؤولياته ودوره في مسائل مهمة كالإجهاض، والتلقيح الصناعي، والقتل للرحمة،

والاستنساخ، وزراعة الأعضاء، وبيعها، وجراحة التجميل، وتحديد النسل، والرحم المُستعار، والتحكم في صفات الجنين ، وزواج المُصاب بالإيدز، والإنعاش الصناعي، وبنك المَنِي، والأخطاء الطبية، والكشف على المريض ذكراً أو أُنثى، ونوع الدواء وجواز التطبيب به، والهندسة الجينية، واستخدام الخلايا الجذعية، والتحكم في نوع المولود، ونقل أعضاء من الحي ومن الميت، وإجراء الفحص الطبي قبل الزواج، وإجراء التجارب على الحيوان والإنسان، وتوزيع الموارد الصحية على خدماتها المختلفة، وحق المريض في العلاج المناسب، وأية قضية قد تستجد في المجال الطبي.

وفي الفصل الرابع تناول فيه أخلاق الإعلام، من خلال بيان أهدافه، وقيمه ، وفضائله، كما ناقش فكرة السيطرة على الإعلام، وعلاقة الإعلام بالمثقف.

وجاء الفصل الخامس من هذا الكتاب القيّم بعنوان الأخلاق العالمية وحقوق الإنسان والهوية، تناول فيه الباحث الأخلاق العالمية والمتغيرات العالمية، وبخاصة الكوزموبوليتية وهي عبارة عن أفراد من بلدان مختلفة ليس لديهم تحيز قومي ويميلون إلى أن العالم كله وطن لهم، ويعرض الباحث في هذا الفصل الرؤية اللبرالية الدولية، والتعددية الديمقراطية، وعالمية الإسلام، ويقترح أن تعتمد مبادئ الأخلاق العالمية على مبدأ العدالة، ومبدأ الاعتراف بالاختلاف بين البشر، والاعتراف بالخصوصيات العامة في اللغة واللون، وضمان حرية الدعوة ، ودفع الاعتداء عن المسلمين، والحض على التعارف والحوار بين الحضارات، والحض على عمل الخير ، والدعوة إلى دفع الظلم، والدعوة إلى تحقيق أفضل نوعية

من الحياة، والنهي عن الفساد ، وشرح باستفاضة التعددية من حيث نشأتها، وبخاصة التعددية الدينية ، وسمات المجتمع الذي يسوده السلم، والتنمية المتوازية والمستدامة ، وفض النزاعات ، ومعالجة أسباب الحروب ، وأهمية حقوق الإنسان، واقتراح منظور إسلامي لحقوق الإنسان من حيث الإطار المعرفي لحقوق الإنسان في الإسلام، وهذه الحقوق هي حق المسلم على المسلم، وحق النفس، وحق الأقارب، وحق الطريق، وحقوق غير المسلمين، وحقوق الوالدين، وحقوق الزوج والزوجة والأبناء والأجير والحيوان، وبيان أسباب الحروب .

وفي الفصل السادس بيّن الخصائص المتميزة لحقوق الإنسان في الإسلام . وجاء الفصل السابع بعنوان التعذيب وهو عمل يُحدث ألماً جسدياً أو نفسياً يُقصد إقرار المُعذّب واعترافه بأنه قام بعمل ما، أو يقصد به الحصول منه على معلومات ، أو ترويع وتخويف الآخرين. ومن أبرز الأساليب التي مارستها وكالة الاستخبارات الأمريكية ضد سجناء جوانتانامو بعد 11 سبتمبر 2001م: الإيهام بالغرق، والضرب، والصعق الكهربائي، والحرمان من النوم ، والتهديد بالاعتداءات الجنسية، وخفض درجة الحرارة في الزنازين ، وتعريض السجناء لحمامات مليئة بالماء المثلَّج، وإجبار السجناء على المشيء عُراة ، وإجبارهم على لبس حفاظات، ومنعهم لفترات طويلة من الذهاب إلى دورات المياه بقصد إذلالهم، ووضعهم داخل مكان مليء بالحشرات كالبعوض والديدان، والحرق بالمواد الحساسة بالجسم. وتناول الباحث في الفصل الثامن الهوية باعتبارها من مشكلات العصر البارزة، وتطرق إلى أحادية الهوية وتعددها، والاثنية والمواطنة. وفي الفصل التاسع من هذا الباب

تناول الباحث الحرب الأخلاقية التي يجب أن تكون عادلة ومبرراتها مقبولة ككونها دفاعاً عن النفس مثلاً وأن تُشن من قبل سلطة الدولة، وليس الأفراد أو الجماعات، وأن تكون الوسائل المستخدمة فيها مشروعة، وتحقق ضرراً أقل، وأن لا يُقتل غير المُقاتل، وأن يكون هناك ميثاق لإعلان الحرب وأخلاقياتها، ويجب معالجة المفاسد الناجمة عن الحرب .

وفي الفصل العاشر الذي جاء بعنوان الإرهاب باعتباره قتل غير المحاربين لتحقيق أغراض سياسية أو إحداث فزع وخوف في المجتمع وزعزعة الشعور بالأمن ، تناول الباحث أسباب الإرهاب ، وكيف يمكن أن نمنعه ؟ وتناول الباحث في الفصل الحادي عشر الحرب من منظور إسلامي ودواعيها ومبرراتها والعلاقة بين المسلمين وغيرهم ، وحظر الإسلام قتل غير المقاتلين أو التمثيل بجثثهم ، ومعاملة الأسرى معاملة كريمة . وفي الفصل الثاني عشر الذي جاء بعنوان أخلاق التعامل مع الحيوان والبيئة ، والحدود التي تُبيِّن استخدام الحيوان والانتفاع به، وكيفية معاملته معاملة طيبة، كما تناول الباحث الكريم أخلاق البيئة ومظاهر فسادها وأسباب هذا الفساد والمنظور الإسلامي لأخلاق البيئة.

وأخيرًا في الباب السادس الذي جاء بعنوان: مفاهيم أساسية في الاخلاق، وقد توزع على أربعة فصول: تناول الفصل الأول السعادة من منظور إسلامي، بيّن فيه الباحث علاقة مباشرة بين السعادة والصحة النفسية، والاقتصاد، والقانون، والسياسة، وقد تطرق إلى مفهوم ارسطو للسعادة الذي عد السعادة الغاية القصوى للإنسان، وأنها مطلوبة لذاتها لا لشيء آخر، وأنها تحوي الخير الأقصى، وجديرة بالاختيار، أما ابن مسكويه فقد اعتبر السعادة

أفضل خير، وهي تمام الخيرات وتحتاج إلى أشياء في البدن وخارج البدن، وذكر مسكويه ثلاث مراتب للسعادة هي: مرتبة يُلبي فيها الإنسان رغبات البدن والحس ولكن باعتدال، ومرتبة لا يكثر فيها برغبات الجسد، وشهوات النفس إلا بما تدعو إليه الضرورة، وأخيراً المرتبة العُليا: مرتبة الفضيلة الإلهية المحضة التي لا يطلب فيها حظاً من حظوظ الإنسان، ولا ما تدعو إليه الضرورة، فتكون أفعال الإنسان كلها أفعال إلهية، وخيرٌ محض . كما تناول الباحث مفهوم السعادة في فلسفة بنتام و مل وعرّف السعادة في مفهومها وناقش موضوع معايير السعادة هل هي موضوعية أم ذاتية، وعرض مقومات السعادة وأسبابها وهي: الحياة الاقتصادية التي تحقق الضروريات والكماليات، والعلاقة الزوجية المبنية على المودة والرحمة، والصداقة والإخاء، والسيرة الحسنة بين الناس، والرضى في العمل، وهناك دور للجماعة والدولة في سعادة الفرد، وناقش الباحث الكريم المعتقدات الخاطئة عن السعادة كالعلاقة بين المال والسعادة.

وفي الفصل الثاني تناول الباحث الكريم العدالة والحرية من الناحية النظرية، ومن منظورهما الأخلاقي ، وجاء الفصل الثالث بعنوان النسبية والمسؤولية، ولماذا نلتزم بالأخلاق؟ إذ حلل نسبية عدم ثبات المعرفة، والنسبية المعيارية، والنسبية الأخلاقية ، والنسبية من منظور إسلامي، أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان الحياة الخيّرة ذات النوعية الجيدة سواء من الناحية النظرية أو منظورها الإسلامي، وكذلك من المنظور الغربي، وقد تناول الباحث الكريم نموذج الحياة الخيرة في الإسلام ويقوم على البُعد العقدي (العقيدة الإسلامية)، والبُعد الروحي والعبادي، والبُعد الاقتصادي،

والتنمية المُستدامة، والمكوّن السياسي، والمكوّن الاجتماعي ، مستعرضاً ذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وآراء العلماء والفقهاء .

واختتم الأستاذ الدكتور عبدالله حسن زروق كتابه المتميز بقائمة للمصادر والمراجع العربية التي بلغت مائة وسبعة وسبعين مصدراً ومرجعاً، كما اختتم الباحث كتابه الرائع بمصادر ومراجع في اللغة الإنجليزية بلغت مائة وستة وأربعين مصدراً ومرجعاً.

صفوة القول في هذا الشأن أن كتاب "قضايا في فلسفة وعلم الأخلاق" عبارة عن موسوعة في فلسفة الأخلاق وفي علم الأخلاق سواء في جوانبها النظرية أو العملية، وسواءً في منظورهما الغربي ومنظورهما الإسلامي، فجاء الكتاب جامعاً مانعاً لا يستغني عنه أي مثقف أو قارئ ملتزم يبحث في هذه الفلسفة وهذا العلم.